ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 30 يوليو 2016

عشرة مبادئ من أجل إنسيّة للقرن الحادي والعشرين

جوليا كريستيفا
تقديم وترجمة: نجاة النرسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

عشرة مبادئ من أجل إنسيّة للقرن الحادي والعشرين[1]

جوليا كريستيفا*

تقديم وترجمة: **نجاة النرسي****

---

1 المصدر: http://www.kristeva.fr/assise2011.html

* كاتبة وباحثة فرنسية من أصل بلغاري.

** أكاديمية وباحثة مغربية من جامعة الحسن الثاني بالبيضاء.

تقديم

بين السادس والعشرين والثامن والعشرين من أكتوبر عام 2011، عقد الفاتيكان لقاء أسيزي الثالث للحوار بين الأديان في كنيسة سيدة الملائكة مريم، برعاية من البابا بندكت السادس عشر، تخليداً للذكرى الخامسة والعشرين لملتقى الأديان الذي أعطى البابا يوحنا بولس الثاني انطلاقته عام 1986. وأسيزي هذه بلدة إيطالية معروفة براهبها القديس فرانسيس الأسيزي الأب الروحي للرهبان الفرنسيسكان، الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، واشتهر بتقواه وصلاحه وبدعواته للسلام والمحبة في العالم.

وقد تضمنت أشغال اللقاء يوماً دراسيّاً تحت عنوان: «يوم للتفكير، للحوار وللصلاة من أجل السلم والعدالة في العالم»، شارك فيه موفدون ممثلون لمختلف الأديان في العالم، وتميز بدعوة الكاتبة والباحثة الفرنسية من أصل بلغاري جوليا كريستيفا، ممثلة لـ «غير المؤمنين» في نظر المستضيفين لها، أو ممثلة للإنسيّة (النزعة الإنسانية l'humanisme) في نظرها، حيث شاركت بمداخلة في الموضوع، هي عبارة عن خطاب باسم الإنسيين، اقترحت فيه عشرة مبادئ لإنسيّة القرن الحادي والعشرين، هي أشبه بالوصايا العشر للعهد القديم، أو بوثيقة «الوصايا العشر لصنع السلام في العالم»، التي أسفر عنها لقاء أسيزي في موسمه الثاني عام 2002، وكأنّها تدفع بهذه الوثيقة إلى أقصى إمكانات امتداداتها في مشروع إنسيّة للقرن الجديد، يعاد فيها مد الجسور بين إنسيّة الأديان (خاصة الإنسيّة المسيحية عند كريستيفا) وإنسيّة عصري النهضة والأنوار في أوروبا.

وإذ تراهن كريستيفا في خطابها هذا، وفي ما تلاه من دراسات وأبحاث لها، على هذه الإنسيّة التي تتخذ من الأنموذج التاريخي الأوروبي اليهودي المسيحي والإغريقي مرتكزاً لها وقاعدة، لإرساء تفاهمات وتواطؤات بين جميع الثقافات على أساس التعايش والتساكن والتفاهم، فإنّ هذا الرهان لم يخلُ من نزعة مركزية أوروبية مغلقة واستعلائية، الأمر الذي سيحول لا محالة دون تحقيقه وتجاوب النماذج الثقافية الأخرى معه، لتجاهله إسهاماتها في حضارة العصر، وتجميله وجه الحضارة الأوروبية الإغريقية اليهودية والمسيحية، في اكتفائها فقط بالإبراز المتكرر لحدثين اثنين استثنائيين و»فريدين» في القرن العشرين، يهمان عذابات محصورة في فئة من الأوروبيين من اليهود والمسيحيين، وهما معسكرا التعذيب والاحتجاز النازي والستاليني (المحرقة والكولاغ)، وهو ما يطمس الجرائم الواسعة الأخرى التي ارتكبتها هذه الحضارة الأوروبية ضد الإنسانية (الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، والحروب الإمبريالية الاستعمارية، والحربان العالميتان، والإبادة الجماعية لشعوب آمنة في أوطانها، وتقسيم الشعوب وتمزيق الدول ونهب خيراتها، ومحرقة هيروشيما اليابانية، وعصابات الهاغانا والأرغون والشتيرن، ومجازر الشعب الفلسطيني المتكررة، وصناعة الإرهاب، وهلمّ جراً...).

ويكفي كريستيفا من هذه الإنسيّة-النسائية التي تعتز بوراثتها من هذه الحضارة الأوروبية «ذات الجذور الإغريقية اليهودية المسيحية» أنّها الوجه النسائي الأوحد والوحيد الذي أثث عتبات لقاء الأسيزي، وكأنّها استثناء يؤكد قاعدة استمرار الإقصاء وتكريسه، وأنّ الإنسيّة الأوروبية «المتصالحة مع ذاتها» ما يزال أمامها طريق طويلة جداً للتصالح مع الآخر والاعتراف به، والانفتاح عليه خارج الخطابات الحالمة عن ذات حضارية متقدمة ومتميزة باحتضانها للاختلاف والتعدد الخلاقين، ولم يثر هذا انتباه كريستيفا لتحريك السؤال النقدي في هذا المجمع الكنسي.

إنّ تقديمنا ترجمة لهذا الخطاب الإنسي الجديد يهدف أولاً إلى إطلاع القارئ العربي على جانب من تطورات الأنموذج الإنسي الجديد في أوروبا والذي تمثل كريستيفا واحداً من أبرز الداعين إليه رفقة جماعة من الأنتلجنسيا الفرنسية خاصة، والمشغولة بإنجاز مصالحات تاريخية بين العلمنة والتراث الكنسي، باستثمار التراكمات الفكرية الإيجابية في عصري النهضة والأنوار، واقتراح سيناريوهات لتسويق نتائج هذه المصالحات والتواطؤات باسم المشترك الإنساني.

وتهدف هذه الترجمة إلى حث الثقافة العربية والإسلامية خاصة على التفكير في كيفية جعل هذا الرهان الإنسي رهاناً مشتركاً وتشاركيّاً ومتفاوضاً عليه وليس مفروضاً وحتميّاً، فمثلما أنّ شعوب العالم بكافة أعراقها وثقافاتها وأديانها كانت شريكةً في الحروب الطاحنة بكل مخلفاتها الكارثية، وكانت شريكةً أيضاً في بناء الحضارة المسماة إقليميّاً بـ «الأوروبية» والتي هي ملك للجميع، فإنّه ينبغي اليوم أن تكون كذلك شريكة في بناء السلام الروحي والمادي العالمي الذي يقترحه الأنموذج الإنسي للقرن الحادي والعشرين، شراكة تامة تمرّ عبر تقدير ثقافات هذه الشعوب، وتثمين الوجه الإنسي الذي يسكنها جميعها، إنسية موسعة وغير إقصائية، أبعد من المونولوغ الضيق الذي يُشعر به خطاب كريستيفا، على الرغم من أنّها رائدة الحوارية في الأدب والنقد والفن، والداعية إلى انفتاح العوالم وتعددها.

فمزيداً من الأنسنة والإنسية الموسعة، باحترام تاريخ تطورها أيضاً في الحضارات والثقافات القائمة اليوم، والتي بإمكانها أن تسهم في تاريخها هذا، كما أسهمت في الأمس، في بناء حضارة اليوم التي هي قطعاً ليست وليدة التطور الداخلي الخاص بالأنموذج الأوروبي، بل هي وليدة تفاعل وتبادل تأثير وتأثر بين نماذج تَشَكل منها الوضع/الوجه الإنساني الحالي لحضارة العصر.

يحق لنا اليوم أن نتكلم عن أنموذج موسع للإنسيّة أكثر انفتاحاً على الثقافات والشعوب العالمية، وأبعد عن رهانات كريستيفا المضمرة لمصالحة الكنيسة مع العلمانية، أو مصالحة أوروبا مع ذاتها، بهدف حفظ مصالح خاصة بالثقافة والسياسة الأوروبيتين.

لا نريد لهذه الإنسيّة أن يضيق طموحها عن طموحات الشعوب والثقافات العالمية في تحرير الأرض والإنسان، ولا أن تُشْعِر الآخرين أنّها موجهة ضدهم وضد مصالحهم واستحقاقاتهم الثقافية والتحررية والتنموية والديموقراطية، ولا أن تكون غطاءً لهيمنة جديدة تفرض تبعية ما باسم أنموذج وحيد وخيار أوحد.

نص خطاب/مداخلة كريستيفا

أشكر لكم تشريفكم لي باستضافتي للحديث باسم الإنسيين أمام هذا المجلس الموقر.

ما هي الإنسية؟ أهي علامة استفهام كبيرة تجاه موضوع على درجة كبيرة من الجدية؟ لقد تشكل هذا الحدث ضمن سياق التراث الأوروبي اليوناني اليهودي المسيحي، وهو الحدث الذي لا يفتأ يَعِد ويُخلف وعده، ويعيد تأسيس نفسه باستمرار.

فحين يصف يسوع نفسه (إنجيل يوحنا 8، 24) بالعبارات ذاتها التي يخاطب بها إيلوهيم موسى (سفر الخروج 3، 14) بقوله: «إنّي أنا مَنْ أنا» فإنّه يُعَرِّف الإنسان ـ ويستشرف الإنسيّة ـ «فردية غير قابلة للتدمير» حسب تعبير بندكت السادس عشر. الفردية غير القابلة للتدمير لا تربط فحسب هذا الإنسان بالإلهي عبر شجرة النسب الإبراهيمية (وهو ما قام به بنو إسرائيل) بل تُجدِّدُه. وذاك أنّه إذا كان قول المسيح «إنّي أنا» يمتد من الماضي والحاضر إلى المستقبل والكون، فإنّ قَبَس نار موسى (شجيرة العليق المشتعلة) وصليب المسيح يصيران كونيّين.

فحين كانت حركة النهضة مع إراسموس، وحركة الأنوار مع ديدرو وفولتير وروسو، بل أيضاً مع الماركيز دي ساد، ثم بعد ذلك مع هذا اليهودي الملحد سيغموند فرويد، تدعوان إلى حرية الرجال والنساء في الثورة على الوثوقيات والاضطهاد، وفي تحرير العقول والأجساد، وفي مساءلة كل يقين، وصية كان أو قيمة، هل كانتا بذلك تفتحان طريقاً إلى عدمية مرعبة؟ إذ في مواجهتها للظلامية أغفلت العلمنة طرح سؤال الحاجة إلى الإيمان التي تضمرها الرغبة في المعرفة، وكذلك سؤال الحدود التي يجب وضعها أمام الرغبة في الموت من أجل تعايش وحياة مشتركة.

غير أنّه ليست الإنسية، بل الانحرافات الطائفية والتقنوية والرافضة للعلمنة هي التي انغمست في «ابتذالية الشر»، وهي التي تشجع حالياً المكننة الجارية للجنس البشري. كلمات يوحنا بولس الثاني: «لا تخافوا» لم تكن موجهة للمؤمنين فقط، الذين كان يشجعهم على مقاومة النزعات الشمولية.

إنّ نداء هذا البابا ـ رسول حقوق الإنسان ـ يحثنا أيضاً على عدم الخوف والتوجس من الثقافة الأوروبية، بل على التوجه نحو الإنسيّة: بإقامة تواطؤات بين الإنسيّة المسيحية والإنسيّة المنحدرة من عصري النهضة والأنوار، تلك الإنسيّة الطامحة إلى تبيين الطرق المؤدية إلى الحرية والمحفوفة بالمخاطر.

شكراً للبابا بندكت السادس عشر على دعوته إنسيين لأول مرّة، ليحلوا بينكم في هذا المكان.

لهذا يذهب تفكيري، وأنا معكم فوق تراب أسيزي، إلى القديس فرانسيس الأسيزي، الذي «لم يكن يسعى إلى أن يُفهَم بقدر سعيه إلى أن يَفْهَم»، ولا «أن يكون محبوباً بقدر ما كان يسعى إلى أن يُحِبَّ»، وأن يوقظ روحانية النساء بأعمال القديسة كلير؛ التي بابتداعها عيد الميلاد أحَلَّت الطفل في قلب الثقافة الأوروبية، والتي قُبيل وفاتها، وهي الإنسية قبل الأوان، بعثت رسالة إلى «كافة سكان المعمورة».

يذهب تفكيري أيضاً إلى جيوتو الذي نقل النصوص المقدّسة إلى رسوم حية تصور الحياة اليومية لرجال عصره ونسائه، ووضع العالم أمام تحدي خلخلة الطقس الخانق للفرجة الطاغية اليوم.

هل ما زال بإمكاننا الحديث عن الإنسيّة، أو بالأحرى الحديث بالإنسيّة؟

يحضرني في هذه اللحظة دانتي الأليغيري وهو يحتفي بالقديس فرانسيس في فردوس كوميدياه الإلهية، لقد أسس دانتي ثيولوجيا كاثوليكية للإنسيّة، بالبرهنة على أنّ الإنسيّة لا توجد إلا حيث يتوفر شرط وحيد، وهو أن نتعالى في اللغة باختراع لغات جديدة، كما قام نفسه بذلك حينما كتب اللغة الإيطالية العامية بأسلوب جديد، وحينما ابتكر ألفاظاً منحوتة مثل «transhumanar» «تجاوز الإنساني في الإنساني» (الفردوس 1: 69) كما يقول، هكذا تكون طريق الحقيقة. يتعلق الأمر بـ «ربط» أي بـ «وصل» («s'indova»، بمعنى «التموضع هنا» في «الأين»)(الفردوس33: 138)، كما ترتبط الدائرة والصورة في الشكل الهندسي المتعانق المسمى بالزهرية Rosace، ارتباط الإلهي بالإنساني في المسيح، والجسدي بالنفسي في الإنساني.

إنّ الإنسيّة المعلمنة هي الوريث اللاشعوري في الغالب لهذه الإنسية المسيحية، التي نعتبرها تجاوزاً للإنساني في المزاوجة بين الرغبات والمعنى بواسطة اللغة، عندما تكون هذه اللغة لغة حُب، وإن افترق هذا الوريث عن مورِّثه بتدقيقه لمنطقه الخاص، الذي أُحِب أن أَخْتَطَّ له عشرة مبادئ، ليست وصايا عشرًا، بل دعوات عشر للتفكير في الجسور الممدودة بيننا.

1- إنسيّة القرن الحادي والعشرين ليست نزعة تأليهية للإنسان، إذ لا وجود لـ «الإنسان» بهذا المعنى المطلق والمجرد، كما لا وجود لـ «قيمة» ولـ «غاية» ساميتين، ولا حلول للإلهي في الأفعال الأسمى لبعض الناس الذين ندعوهم «عباقرة» منذ عصر النهضة. فبعد المحرقة النازية ومعتقلات الكولاغ الستالينية، تعَيَّن

على الإنسيّة واجب تذكير الرجال والنساء بأنّه إذا كنا نعتبر أنفسنا المشرِّعين الوحيدين، فإنّنا لا نستطيع أن نقرر بشأن المجتمع والتاريخ إلا عبر المساءلة المتواصلة لوضعنا الشخصي، التاريخي والاجتماعي. واليوم، وبعيداً عن أي نزوع إلى رفض العولمة، فإنّه صار من الضروري إبداع تشريع دولي جديد لتقنين المال والاقتصاد المعولم وضبطهما، وأخيراً إرساء حكامة عالمية أخلاقية كونية ومتضامنة.

2- باعتبارها مسلسلاً لإعادة التأسيس الدائم، فإنّ الإنسيّة لا تتطور إلا عبر قطائع هي تجديدات (الكلمة التوراتية hiddouch تعني افتتاح - تجديد- إعادة تجديد، enkainosis et anakainosis; novatio et renovatio). لا سبيل لمحاربة الجهل والرقابة، ومن ثمّ تسهيل التعايش بين الذاكرات الثقافية التي تم بناؤها عبر التاريخ، إلا بالمعرفة الدقيقة للموروث اليوناني ـ اليهودي - المسيحي، وتعريضه لفحص معمق، وبعبارة نيتشه: القلب الجذري لقيم التراث (Transvaluer).

3- باعتبار بُنُوَّتِها للثقافة الأوروبية، فإنّ الإنسيّة هي ملتقى الاختلافات الثقافية التي تشجعها العولمة والرقمنة. إذ تحترم الإنسيّة، وتترجم وتعيد تقييم صِيَغ الحاجات إلى الإيمان والرغبات في المعرفة، والتي هي مشترك كوني بين جميع الحضارات.

4- إنسيون نحن و«لسنا ملائكة فلدينا جسد». هكذا تحدثت القديسة تيريزا الأفيلية في القرن السابع عشر، ممهدة بذلك للعصر الباروكي الذي لم يكن إصلاحاً مضاداً، بل ثورة باروكية فاتحة لعصر الأنوار. غير أنّ الرغبة الحرة هي رغبة في القتل. ولم يكن بُدٌّ من انتظار التحليل النفسي لتجميع هذه الحرية في الرغبات، داخل التقعيدات الوحيدة والنهائية للّغة، هذه الحرية التي لا تمارس عليها الإنسيّة الرقابة ولا تحابيها، ولكن تقترح توضيحها ومصاحبتها والسمو بها.

5- الإنسيّة هي نسائية، إذ كان من المنتظر أن يؤدي تحرير الرغبات إلى انعتاق النساء. فبعد فلاسفة الأنوار الذين فتحوا هذه الطريق، قامت نساء الثورة الفرنسية بفرضها مع تيغوان دوميريكور وأولمب دوكوج إلى فلورا تريستان ثم لويز ميشيل وسيمون دوبوفوار، واللائي رافقتهن نضالات الإنجليزيات المطالبات بالحق في التصويت، دون أن أنسى الصينيات منذ الثورة البورجوازية يوم 4 ماي 1919. إنّ النضالات من أجل مناصفة اقتصادية وقانونية وسياسية تستوجب تفكيراً جديداً ينصب على اختيار الأمومة ومسؤوليتها. مازالت العلمنة هي الحضارة الوحيدة التي لا تملك خطاباً حول الأمومي. فالرباط العاطفي بين الأم والطفل، ذلك الغير الأول، وفجر الحب وسيرورات تطورالنوع الإنساني l'hominisation، ذلك الرباط الذي تصير فيه الاستمرارية البيولوجية ذات معنى، أي غيرية وكلاماً، هو ميثاق وِصال reliance، ومع أنّ هذا الميثاق العاطفي الوصالي الأمومي يختلف عن التدين وعن الوظيفة الأبوية، فإنّه يكملهما وينتمي بالكامل إلى الأخلاقية الإنسيّة.

6- إنسيون، بفرادة التجربة الداخلية القابلة للتقاسم، نستطيع محاربة هذه الابتذالية الجديدة للشر، الذي تمثله المكننة الجارية للجنس البشري. لأنّنا كائنات تتكلم وتكتب وترسم وتصبغ وتعزف وتلعب وتحْسُب وتتخيل وتفكر، فليس محكوماً علينا أن نتحول إلى «عناصر لغوية» في الاتصالات الرقمية المفْرِطة والمتسارعة. إذ قدراتنا التمثيلية التخييلية اللانهائية هي مسكننا وعمقنا وخلاصنا، أي حريتنا.

7- لكن بابل اللغات توَلِّدُ كذلك الفوضى واللانظام، تلك البلبلة التي ليس بمقدور الإنسيّة أن تقننها أبداً بمجرد الإنصات الشديد إلى لغات الآخرين. لقد آن الأوان لاستعادة القواعد الأخلاقية الغابرة، لا بهدف إضعافها، بل من أجل أشْكَلَتِها، عبر تجديدها بالنظر إلى التفردات الجديدة. إنّ المحرمات والحدود، وبعيداً عن كونها مجرد تقاليد بالية، هي وقاية لا يمكننا تجاهلها دون محو الذاكرة التي تشكل ميثاق البشر فيما بينهم ومع كوكب الأرض والكواكب الأخرى. التاريخ ليس شيئاً مضى؛ فكتب التوراة والأناجيل والقرآن والركفدا الهندية والتاو الصيني تسكننا في الحاضر. وكما أنّه مِن الطوباوية ابتداع أساطير جماعية جديدة، فإنّه من غير المُجدي الاكتفاء بمجرد تأويل الأساطير القديمة، بل يلزمنا إعادة كتابتها وإعادة التفكير فيها، وأن نحياها من جديد بلغات الحداثة.

8- لم يعد هناك كون واحد مفرد، فالبحث العلمي يكتشف الكون المتعدد ولا ينفك عن سبره وتقصيه، تعدد الثقافات والديانات والأذواق والإبداعات وتعدد الفضاءات الكونية والمواد والطاقات المتعايشة مع الفراغ والمتوافقة معه. لا تخشوا كونكم فانين. ولأنّ الإنسيّة قادرة على التفكير في الكون المتعدد، فإنّها تواجه مهمة تعليق جميع أحكام القسمة الطبيعية والقيمية، أي إدراج الفناء في هذا التعدد الكوني للأحياء والأكوان.

9- من يطيق ذلك؟ إنّها الإنسيّة، لأنّها تداوي وتُعالِج. فالانشغال بحب الآخرين، والعناية البيئية بالأرض، وتربية الشباب، ومرافقة المرضى والمعاقين والشيوخ وكافة المحتاجين إلى المساعدة، لن توقِف جميعها سباق التقدم العلمي ولا الانفجار المالي الافتراضي؟ لن تكون الإنسيّة ضابطاً للّيبرالية التي تعتقد أنّها قادرة على تغييرها من غير حوادث مأساوية ولا غدٍ واعد. فالإنسيّة إذ تتريث، بخلقها تقارباً جديداً وتضامنات بسيطة، سترافق الثورة الأنثربولوجية التي بشرت بها كل من البيولوجيا المحررة للنساء، والإهمال القائم في عالم التقنية والمال، وعجز الأنموذج الديمقراطي الهرمي عن التحكم في التجديدات.

10- لا يصنع الإنسان التاريخ، لكننا نحن التاريخ. فلأول مرّة، يغدو الإنسان العارف قادراً على تدمير الأرض بنفسه باسم أديانه أو معتقداته أو إيديولوجياته. ولأول مرّة أيضاً يصبح الرجال والنساء قادرين على إعادة تقييم التدين المُشَكِّل للكائن الإنساني، وبكلّ شفافية.

إنّ التقاء تنوعنا هنا في أسيزي شاهد على أنّ فرضية التدمير ليست هي وحدها الممكنة. فلا أحد يعرف من هم البشر الذين سيخلفوننا، نحن الذين انخرطنا في هذا القلب القيمي الجذري، الأنثربولوجي والكوني، غير المسبوق. إنّ إعادة تأسيس الإنسيّة هي رهان وليست ثابتاً روحيّاً أو تمريناً ذهنيّاً.

إنّ زمن الارتياب لم يعد مجدياً. فأمام الأزمات والتهديدات المتفاقمة، ها هو ذا زمن الرهان قد حان، فلْنتجرأ على الرهان على التجديد المستمر لقدرات النساء والرجال على الإيمان والمعرفة معاً، من أجل أن تتمكن الإنسانية من مواصلة قدرها الخلاق لمدة أطول، في هذا الكون المتعدد المحاط بالفراغ.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016